جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

الفخر في شعر النابغة الجعدي: دراسة في الأنساق الثقافية

إعداد

د. مسلم عبيد الرشيدي

الأستاذ المشارك - قسم العلوم العامة -كلية الإنسانيات والعلوم - جامعة الأمير سلطان - الرياض

(العدد الثالث والأربعون)
(الإصدار الأول-فبراير)
(الجزء الثالث (١٤٤٥هـ /٢٠٢٤م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) 2536- 9083
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٢٤/٦٢٧١م

الفخر في شعر النابغة الجعدي: دراسة في الأنساق الثقافية

مسلم عبيد الرشيدي

قسم العلوم العامة، كلية الإنسانيات والعلوم، جامعة الأمير سلطان، الرياض، المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني: msm20092@gmail.com

الملخص:

كثر الفخر بالنفس والقبيلة في ديوان النابغة كثرة دالة تستحق البحث والدراسة، وبخاصة أنها في ديوان شاعر مخضرم وضعه ابن سلام في الطبقة الثالثة من فحول شعراء الجاهلية، وعمَّر طويلا، فقد عاش في الجاهلية والإسلام، وتبين بعد دراسة الأنساق المختلفة العلنية والمضمرة في ديوانه أن أسبابا ودواعي تعاضدت لجعل الفخر حاضرا بهذه القوة في ديوانه، وهي أسباب مرتبطة بالسياقات التي أنتجتها قصائده، وبالأنساق الذاتية والقبلية والاجتماعية السائدة، وتكتسب هذه الدراسة أهميتها من كونها تناولت شاعرًا فحلًا لم ينل حظًا وفيرًا في الدراسات النقدية وغيرها؛ ولأنها تناولت شعر الفخر ضمن سياقه الثقافي والاجتماعي والديني، واعتمدت أدوات من النَّقد الثقافي وهي "الأنساق الثّقافية" بالإضافة إلى أدوات مناهج أخرى منها التاريخي والنفسي؛ وذلك لقدرتها على كشف السِّياقات الاجتماعية والثَّقافية المضمرة الَّتِي شكّلت ذلك المنظور، وما فيها من أنساق، حيث أن قصائد النابغة الجعدي يظهر بوضوح في نصوصها مدى صلتها بالثقافة، وكيف أنها استمدت من هَذِهِ الثقافة معظم أبنيتها الدّلالية، وقد آثرنا في هَذَا البحث استخدام منهج القراءة الثقافية الَّتِي تحلل الظواهر لردها إلى مرجعها الثقافي مع أدوات مناهج أخرى منها التاريخي والنفسي والوصفي التحليلي، وبرز شعر النابغة الجعدي وتأثره الشديد بالقرآن الكريم وبتعاليم الإسلام في الجانب الديني، وتأثره بالعصر الذي يعيش فيه.

الكلمات المفتاحية : النابغة الجعدي، النسق، الجاهلية، الفخر، المخضرم.

Pride in the poetry of Al-Nabigha Al-Jaadi: A study in cultural Formats

Muslim Obaid Al-Rashidi
Department of General Sciences, College of Humanities and Sciences, Prince Sultan University, Riyadh, Kingdom of Saudi Arabia.

Email: msm20092@gmail.com

Abstract:

The abundance of pride in oneself and the tribe in Al-Nabigha's poetry collection is a significant amount that deserves research and study, especially since it is in the poetry collection of a veteran poet whom Ibn Salam placed in the third class of pre-Islamic poets, and he lived a long time. He lived in pre-Islamic times and Islam, and it became clear after studying the various overt and implicit styles in his poetry that there are reasons for There were reasons that combined to make pride so strongly present in his collections, and they are reasons related to the contexts that produced his poems, and to the prevailing personal, tribal, and social patterns. This study gains its importance from the fact that it dealt with an outstanding poet who did not have much luck in critical and other studies. Because it dealt with pride poetry within its cultural, social and religious context, it was adopted Tools of cultural criticism, namely "cultural patterns," in addition to tools of other approaches, including historical and psychological; This is due to its ability to reveal the underlying social and cultural contexts that shaped that perspective, and the patterns within it, as the poems of Al-Nabigha Al-Jaadi clearly show in their texts the extent of their connection to culture, and how they derived from this culture most of their semantic structures. In this research, we chose to use the cultural reading approach. Which analyzes phenomena in order to return them to their cultural reference with the tools of other approaches, including historical, psychological, and analytical descriptive. The poetry of Al-Nabigha Al-Jaadi emerged and was strongly influenced by the Holy Qur'an and the teachings of Islam in the religious aspect, and its influence by the era in which he lives.

Keywords: *Al-Nabigha Al-Jaadi, style, ignorance, pride, veteran.*

المقدمة

يكثر الفخر في قصائد النابغة الجعدي.[1] كثرة لافتة، وهو يظهر في قصائده واضحًا في أنساق ثقافية تلفت النظر، وتدعو إلى التفكّر فيها وتدبرها، ولما كان النابغة الجعدي من المخضرمين فإن دراسة الفخر في قصائده ضمن الأنساق التي أنتجته وساعدت في تشكيله سيساعد كثيرًا في تعرّف مدى تأثير الدين الإسلامي في قيم الشاعر وأخلاقه وشعره، ومدى تأثر الشاعر بالجاهلية وما فيها، ومدى اعتداد الشاعر بنفسه وبقبيلته، ومدى انتمائه إليها وإيمانه بعاداتها وأخلاقها وقيمها وأفعالها وأثر ذلك في شعره، وتكمن أهمية الدراسة في جدة موضوعها، وفي حدود اطلاعي لم يدرس شعر الفخر عند النابغة الجعدي دراسة في الأنساق الثقافية، لأنها دراسة عن شعر شاعر لم يحظ بكثير من الاهتمام والبحث، ولأنها دراسة تسعى إلى قراءة النص الشعري بالكشف على الأنساق المتوارية في بنية النص في فخر النابغة الجعدي، إذ تعد الأنساق الثقافية المختلفة ميدانًا رحبا للدارسين سواء أكانت أنساقاً جمالية، أم أنساقاً أيديولوجية تشكل القيم الثقافية والفكرية المكتسبة.

---

(١) قيس بن عبد الله بنُ عدس بن ربيعة الجعدي العامري، أبو ليلى، شاعر مفلق من المخضرمين، صحابي من المعمرين اشتهر في الجاهلية، وسمي النابغة لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقول الشعر ثم نبغ فقاله، وكان ممن هجر الأوثان ونهى عن الخمر قبل ظهور الإسلام، وفد على النبي، صلى الله عليه وسلم، وأدرك صفين فشهدها مع علي ثم سكن الكوفة فسيره معاوية إلى أصبهان مع أحد ولاتها فمات فيها، وقد كف بصره وجاوز المئة، ينظر: محمد بن سلام الجمحي "طبقات فحول الشعراء"،١/١٢٣، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة "الشعر والشعراء"،١/٢٨٠، علي بن الحسين الأصفهاني "الأغاني"٥/٥. وانظر ترجمته في كتاب: أحمد حسن بسبح، "النابغة الجعدي عصره، حياته وشعره"، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤، المقدمة)، وانظر: مقدمة "ديوان النابغة الجعدي"، تحقيق واضح الصمد، (دار صادر بيروت، ١٩٩٨)، ص ص ٤-١٠.

والدراسات التي تناولت شعر النابغة الجعدي اعتنى أكثرها بالحديث عن حياة الشاعر وأغراضه، أذكر منها:

البنى الأسلوبية في شعر النابغة الجعدي لياسر محمد فياض، اعتمد فيه منهجية قائمة على تحليل النصوص أسلوبيا ضمن ثلاثة مستويات: المستوى الصوتي، والمستوى الدلالي، والمستوى التركيبي.

والنابغة الجعدي عصره، حياته وشعره لأحمد حسن، وهو دراسة تاريخية جاءت في أربعة فصول تحدث في الفصل الأول عن بيئة الجاهلية الطبيعية والسياسية والاجتماعية والدينية، وتحدث في الفصل الثاني عن صدر الإسلام، وعن القرآن واللغة العربية، وعن أثر الإسلام في الحياة العربية، وتحدث في الفصل الثالث عن النابغة الجعدي حياته ونشأته ونسبه وسيرته وشاعريته، وتحدث في الفصل الرابع عن أغراض النابغة الجعدي الشعرية من غير تحليل.

والنابغة الجعدي وشعره لإبراهيم عوض، وهي دراسة تاريخية بحثت في عدة مسائل منها: الكلام على تعمير النابغة الجعدي، ومسألة نسبة قصيدة "الحمد لله لا شريك له"، ومسألة تحنفه، ومسألة لين شعر النابغة الجعدي بعد دخوله الإسلام التي فتح أبوابها الأعشى، وختم الباحث دراسته بفصل في تقويم فن النابغة الجعدي واستخلاص السمات التي تميزه وتجعله متفرد النكهة.

ودراسة إبراهيم خليل" النابغة الجعدي حياته وشعره وهي دراسة جاءت في ثلاثة أبواب تحدث الباحث في الباب الأول عن قبيلة جعدة، وعن النابغة، وتحدث في الباب الثاني عن أغراض النابغة الجعدي الشعرية وهو لم يتحدث فيه عن الفخر عند الشاعر، وتحدث في الباب الثالث عن خصائص شعر النابغة الجعدي الفنية واللفظية والأسلوبية والمعنوية

وعلى الرغم من أن الفخر يكثر في شعر النابغة الجعدي كثرة لافتة إلا أن

الباحثين والدارسين لم يلتفتوا كثيرا إلى أهمية الفخر عند النابغة، ولم يخصوه بدراسة منفردة خاصة تدرس فيه الفخر وأسبابه ودواعيه وخصائصه، ومعرفة مدى تأثره بما طرأ على المجتمع في ذلك الزمن من تغيرات ثقافية لدخوله في الإسلام، ولما وجدت هذه الكثرة الواضحة في شعر الفخر عند النابغة، وأنه فخر تنوع واختلف بتنوع الأنساق التي شكلته، وأن وجوده يستحق الدرس والبحث، وأنه لم يدرس بحدود اطلاعي، ضمن النسق الذي شكله وأثر فيه، فقد رأيت أن أدرس هذه الأنساق الثقافية في شعر الفخر عند النابغة الجعدي، وأن يحاول الإجابة عن مجموعة من الأسئلة التي ترتبط بشعر الفخر عند النابغة وهي: هل كان للنسق الديني أثر واضح في شعر الفخر عند النابغة الجعدي في العصرين الإسلامي والجاهلي؟ هل كان للنسق الاجتماعي أثر في شعر الفخر عند النابغة الجعدي؟ هل كان للنسق الذاتي أثر في شعر الفخر عند النابغة الجعدي؟ هل اختلف شعر الفخر عند النابغة الجعدي في العصر الجاهلي عنه في العصر الإسلامي؟ هل كان للنابغة أسباب واضحة ودواعي ظاهرة مؤثرة ليكثر من الفخر بنفسه وبقبيلته ونسبه وبانتمائه؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة، أرى أن تكون هذه الدراسة وفق المنهج الثقافي وأدوات من المنهج التاريخي والمنهج الوصفي والمنهج التحليلي والمنهج الثقافي، والمنهج النفسي؛ فشعر الفخر عند النابغة إذا ما قرئ بأدوات المناهج المعاصرة قد يفتح الباب واسعاً على جمال أكثر، وبوح أغنى نجد فيه ما غاب عن نقادنا العرب القدامى الذين انشغلوا بتفسير الشعر وشرحه، فهو شعر غني بما يكنزه من طاقات لغوية، وإشارات دلالية وبما فيه من مفردات موحية.

واشتملت الدراسة على **مقدمة** وفصلين، أما **الفصل الأول** فخصصته لتوضيح شعر الفخر في شعر النابغة الجعدي، والتعريف بمصطلح الأنساق الثقافية، والدواعي والأسباب التي بسببها كثر شعر الفخر، وأما **الفصل الثاني** فجاء في ثلاثة مباحث، النسق الديني في شعر الفخر عند النابغة الجعدي، والنسق القبلي في شعر الفخر

عند النابغة الجعدي، والنسق الذاتي في شعر الفخر عند النابغة الجعدي، ثم خصائص شعره العامة.

الفصل الأول

الفخر في شعر النابغة

اشتهر النابغة الجعدي[١] في الجاهلية وفي الإسلام، وسمي (النابغة) لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقول الشعر، ثم نبغ فقاله، وكان ممن هجر الأوثان، ونهى عن الخمر قبل ظهور الإسلام، فقد جاء أن النابغة الجعدي، عاش مائة وعشرين سنة،[٢] وأنه

---

(١) هو أبو ليلى النابغة قيْس بن عَبْد اللّه بن عَمْرو بن عدس بن ربيعة بن جَعْدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة واختلف المؤرخون والعلماء في اسم النابغة الجعدي ونسبه وعمره وأخباره، ولكنهم أجمعوا على أنه أبو ليلى النابغة الجعدي شاعر وصحابي من المعمرين. ولد في الفلج (الأفلاج) جنوبي نجد، وأن عمره امتد فعاش إلى حدود سنة ٦٥هـ، انظر تفاصيل الاختلافات حول اسم الشاعر ونسبه وعمره وحياته في كتاب، أحمد حسن بسبج ، "النابغة الجعدي عصره، حياته وشعره"، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤، ص ص ٣١، ٣٢، ٣٣. ومنهم من قال إن اسمه حبان بن قيس، ورجح بعضهم أن اسمه قيس كما فعل صاحب معجم الشعراء المرزوباني، ص١٩٥، وابن سلام في طبقات فحول الشعراء ، ص٥٣، وأما ابن قتيبة في الشعر والشعراء، ص١٥٥، وفي كتاب المعمرين فهو قيس بن عبدالله، وانظر ترجمته: مقدمة ديوان النابغة الجعدي، تحقيق واضح الصمد، (دار صادر، بيروت، ١٩٩٨)، ص ص ٤- ١٠.

(٢) قيل: مات النابغة الجعدي في أصبهان وقد كف بصره سنة ٦٥ هـ / ٦٨٤، وجاوز المِئَة واثني عشر سنة، وقيل مئة وعشرين سنة، وقيل مائتين وعشرين. انظر: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، "الإصابة في تمييز الصحابة"، (كلكتا، ١٨٥٣)، ج٦، ص٣٠٩. وانظر، الأصفهاني، "الأغاني"، ج٥، ص٧، وانظر: ابن حجر، "الإصابة"، ج٦، ص٣١٤. وانظر: البغدادي، "خزانة الأدب"، ج٣، ص ص ١٥٨، ١٥٩. وانظر: الذهبي، "سير أعلام النبلاء"، ج٣، ص١٧٨.

شاعر زمانه،[١] وله صحبة، ووفادة، ورواية، وكان يتنقل في البلاد، ويمتدح الأمراء[٢].

ولما جاء الإسلام وفد النابغة على النبي –صلى الله عليه وسلم –، فأسلم وأنشده قصيدة استحسنها النبي صلى الله عليه وسلم؛ قائلا: "لا يفضض الله فاك"[٣]، ومنها قوله: [٤]

تبعت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلـو كتابًا كالمجـرة نيرا

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال النبي: "أين المظهر يا أبا ليلى؟" فقال: "الجنة"، قال النبي: "أجل إن شاء الله"،[٥] ثم أكمل إنشاده:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

---

(١) ويؤكد ابن قتيبة أنه كان معمرا وأنه مات بأصبهان وعمره مئتان وعشرون سنة، انظر: ابن قتيبة، "الشعر والشعراء"، ص٢٨١.

(٢) انظر: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، (ت ٧٤٨هـ) "سير أعلام النبلاء" تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، (مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥)، ج٣، ص١٧٧.

(٣) حديث ضعيف، انظر: ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني(ت٨٥٢هـ)، "الإصابة في تمييز الصحابة"، (كلكتا، ١٨٥٣)، ج٦، ص٣٠٩، وانظر: ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت٢٧٦هـ)، "الشعر والشعراء"، (دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ) ص٢٨٠.

(٤) قيس بن عبد الله بنُ عدس بن ربيعة النابغة الجعدي العامري، "ديوانه"، تحقيق: د. واضح الصمد، (بيروت، دار صادر، ط١، ١٩٩٨م)، ص٥٦.

(٥) انظر: ابن قتيبة، "الشعر والشعراء،" ص٢٨٠. وانظر: البغدادي، "خزانة الأدب"، تحقيق: محمد نبيل الطريفي، وإميل اليعقوبي، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨)، ج٣، ص١٥٨.وانظر: علي بن الحسين الأصفهاني، (ت٣٥٦هـ)، "الأغاني"، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٤)، ج٥، ص ص ٩-١٠.

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

وصنفه ابن سلام في رأس الطبقة الثالثة من الجاهليين مع أبي ذؤيب الهذلي، والشماخ بن ضرار، ولبيد بن ربيعة، ووصفه بأنه شاعر مُفلْق(١).

وقد نظم النابغة شعر كثيراً، فمدح، وفخر، ووصف مآثر قومه، وهاجى ليلى الأخيلية، وأوس بن مغراء وغيرهم، فتغلبوا عليه، (٢) وكان من أوصف الشعراء للخيل.

وتكاد تجمع الروايات على أن النابغة عاش إلى زمن عبدالله بن الزبير،(٣) وفي الأغاني "كان الجعدي أسن من نابغة بني ذبيان"،(٤) ويؤكد النابغة بنفسه أنه عاصر المنذر بن محرق، يقول:(٥)

وَلَقَد شَهِدتُ عُكاظَ قَبلَ مَحَلِّها فِيها وَكُنتُ أُعَدُّ مِنَ الفِتيانِ

وَالمُنذرَ بنَ مُحــرّقٍ في مُلكِهِ وشهدتُ يَومَ هَجائِنِ النُعمانِ

وأرجح أن النابغة الجعدي عمر أكثر من مائة وثمانين سنة لأنه أنشد حين سأله عمر بن الخطاب عن عمره، (٦) فقال: (٧)

لبست أناساً فأفنيتهم وأفنيت بعد أناس أناسا

---

(١) انظر: محمد بن سلام الجمحي، (ت٢٣١هـ) "طبقات الشعراء"، (دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١)، ص٥٣.

(٢) انظر: ابن سلام، "طبقات الشعراء"، ص٥٣.

(٣) انظر: بسبح، "النابغة الجعدي حياته وشعره"، ص ٣٢، وانظر: الأصفهاني، "الأغاني"، ج٥، ص ص ٦،٧.

(٤) انظر: الأصفهاني، "الأغاني"، ج٥، ص٥.

(٥) انظر: النابغة الجعدي، "ديوانه"، ص١٧٦.

(٦) انظر: "الأغاني"، الأصفهاني، ج٥، ص٦.

(٧) انظر: النابغة الجعدي، "ديوانه"، ص٩٨.

ثلاثة أهلين أفنيتهـــم وكان الإله هو المستآسا

ويفاخر الشعراء الجاهليون بأنفسهم وبقبائلهم وبأحسابهم وأنسابهم ذاكرين فعالهم وصفاتهم وأيام انتصاراتهم شماتة بالأعداء وتخويفا لهم؛ إذ هم يرسمون صورة مهيبة لقبائلهم، فالشاعر لسان قبيلته المدافع عنها الناطق باسمها، ويعد الفخر من أشهر الأغراض التي خرج إليها الشعر الجاهلي، وقد كثر فيه، وتعددت أنواعه وأساليبه، واشتمل على معانٍ وصورٍ مختلفة ومتشابهة، فهو من الفنون الأدبية التي يمكن أن تكشف عن طبيعة الحياة الجاهلية، وعن بعض جوانبها الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والنفسية بحكم ارتباطه ارتباطًا وثيقًا بحياة الناس في المجتمع البدوي.

واحتل الفخر في ديوان النابغة الجعدي حيزًا كبيرًا، وعملت أسباب متداخلة ومتعاضدة على دعم هذا الحضور اللافت للفخر في ديوان النابغة الجعدي.

مفهوم النسق لغة واصطلاحا

تشكل النقد الثقافي كردة فعل على أدبية الأدب التي أصرت على تناول النص بمعزل عن محيطه، وقد ظهرت الأنساق الثقافية بفعل ظهور هذا المنهج، واحتلت الدراسات النقدية الأدبية التي تعتمد النقد الثقافي حيزًا عريضًا في البحث النقدي.

والنقد الثقافي يحاول الوصول إلى معرفة المعاني الخفية التي يحملها النص، وهو نسقان رئيسان: النسق العلني الظاهر، والنسق المضمر؛ إذ يرى مستخدمو أدواته مثلا أن الهجاء يختبئ خلف المديح كمضمر نصي نسقي، وهذا هو الشكل الذي يظهر عليه الخطاب المهيمِن، والنقد الثقافي معني باكتشاف النسق المضمر وتحليل الأنساق الخاصة به، فهو نشاط أو فعالية يهتم بالأنساق الثقافية بوصفه

نسقا ثقافيا يؤدي وظيفة نسقية ثقافية تضمر ما هو مضاد للعلن،[١] أي أن النص قد يضم معنيين: معنى ظاهرا ومعنى آخر باطنا، فيقوم التحليل الثقافي على المقابلة بينهما[٢].

والنسق في معناه اللغوي لا يبتعد كثيرا عن معناه الاصطلاحي فقد جاء في مقاييس اللغة[٣] "النون والسين والقاف أصلٌ صحيح يدلُّ على تتابعٍ في الشَّيء وكلامٌ نَسقٌ: جاء على نظام واحد قد عطف بعضه على بعض أصله قولهم: ثَغْر نَسقٌ إذا كانت الأسنان متناسقة متساوية، وخَرز نَسقٌ: منظم قال أبو زبيد:

بجيد رِيمٍ كريمٍ زانَه نَسقٌ يكاد يلهبه الياقوتُ إلهابا ".

أما في لسان العرب[٤] فإن النسق من كل شيء هو ما كان "على طريقة نظام واحد، عامٌ في الأشياء، وقد نسقته تنسيقا، والنسق: ما جاء من الكلام على نظام واحد النّسقٌ: كواكب مصطفة خلف الثريا، ويقال: رأيت نسقا من الرجال والمتاع أي بعضها إلى جنب بعض، والنّسق بالتسكين: مصدر نسقت الكلام إذا عطفت بعضه على بعض؛ ويقال: نسقت بين الشيئين وناسقت".

---

(١) الخليل، سمير، النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب، دار الجواهري، بغداد، ٢٠١٢، صفحة ٧.

(٢) انظر: الغذامي، عبد الله، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية، المركز الثقافي العربي، المغرب،٢٠٠٥، صفحة ١٦٢.

(٣) أبو الحسين أحمد بن زكرياء القزويني الرازي ابن فارس ، (ت ٣٩٥هـ)، "معجم مقاييس اللغة"، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م. مادة نسق.

(٤) ابن منظور، "لسان العرب"، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، (د ت)، القاهرة، مادة نسق.

ويرى علي السلمي أن النّسق مفهوم يعم الكون كله، وأن الكون بكامله ليس إلا نسقاً كبيراً يحوي داخله أنساقاً جزئية تتداخل فيما بينهما"[١] ويرى كمال أبو ديب أن النسق باعتباره كلاً موحدا، هو نقطة البداية التي يمكن انطلاقا منها... تحديد العناصر المكّونة له"[٢].

والنّسق هو نظام ذاتي متغير مرن تحكمه مجموعة من القوانين والقواعد العامة، وتشترك في إنتاجه مجموعة من الظروف الخارجية الاجتماعية والثقافية المرتبطة بالجماعة والبيئة، ومجموعة من الظروف الداخلية المرتبطة بالفرد مع السلطة، سواء أكانت اجتماعية أم سياسية، ولهذه الأنساق قيمة جمالية وقيمة فكرية لا يمكن التغافل عنها[٣].

ومن هنا فإن النسق يكتسب قيمته داخل البنية فضلا عن علاقاته مع بقية العناصر أو من خلال موقعه ضمن شبكة العلاقات التي تنظم العناصر وبها تكتمل البنية فينتج عنها نسقا، والعناصر المفردة لا قيمة لها ما لم تكن في سياق علاقات منظمة.

"والنّسق الشّعري يحيا في سياقين: سياق ثقافي: القيم، العادات والتقاليد والأعراف والسلوكيات اليومية، وسياق نصي: المخططات الذهنية للمبدع، والتي تعمل كدعامات رمزية للنشاط الفكري والإبداعي"[٤].

---

(١) علي السلمي، "تحليل النظم السلوكية"، مكتبة غريب، القاهرة، د ط، د ت، ص ٣٣.

(٢) كمال أبو ديب، "الرؤية المقنعة"، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، دار الكتب، ١٩٨٦م، ص ١٦٦.

(٣) انظر: ميلود حبيبي، "الاتصال التربوي وتدريس الأدب، المرجع الثقافي العربي" ، بيروت، الدار البيضاء ط١، ١٩٩٣م، ص١٠.

(٤) انظر: ميلود حبيبي، "الاتصال التربوي وتدريس الأدب، المرجع الثقافي العربي"، ص١٠.

"والنّسق الثقافي هو نظام من الممارسات الجماعية لطقوس جماعية، أما النّسق الشّعري فهو نظام من الممارسات الفردية يشكله فكر الجماعة، ويصير فيه الشاعر أداة يحقق بها النّسق الثقافي أهدافه." والنّسق الثقافي يفسر أشياء الحياة من خلال معتقدات جماعية تشّكل مرتكزا مهما لطقوس حياة هذه الجماعة، أما النّسق الشّعري، فهو علامة على وعي الفرد بهذه المرتكزات(١).

تعاضدت مجموعة من العوامل والأسباب لجعل الفخر من الأغراض التي أخذت حيزًا كبيرًا من شعر النابغة الجعدي، منها ما هو عوامل ذاتية مرتبطة بحياة النابغة الجعدي وشخصيته وثقافته، ومنها ما هو عوامل وأسباب خارجية مرتبطة بالنسق الاجتماعي والثقافي والبيئي.

---

(١) يوسف عليمات، "جماليات التحليل الثقافي"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤، ص ٤٢.

دواعي وأسباب الفخر في شعر النابغة الجعدي

أولاً: سبب الفخر

تعددت الأسباب التي جعلت الفخر دائم الحضور على لسان النابغة الجعدي، فهو شاعر معمر مفلق من فحول الشعراء، ثم إنه كان في الجاهلية ممن يتفكرون ويتأملون فأنكر الخمر والسكر، وهجر الأزلام والأوثان(١).

وكان لعمر النابغة الجعدي أثر كبير في حياته، وقد أدرك الباحثون والعلماء هذا الأثر، فقد مكنه هذا العمر الطويل من معاصرة كثير من أيام قبيلته، ومشاركتهم كثير من المعارك، وحضور كثير من الأحداث، وكان له شرف الوفادة على الرسول صلى الله صلى الله عليه وسلم، وإعلان إسلامه، وهو يكرر الإشارة إلى طول عمره في شعره بما يوحي أنه عرف منزلته الشعرية، ووثق بها، وعرف مكانته بين قومه وعشيرته، بل ومكانته في الإسلام بعد أن أسلم وصحب الرسول صلى الله صلى الله عليه وسلم، وقد أمده هذا العمر الطويل بمزيد من الثقة بنفسه وبشعره، وهو يرى شعره القوي العالي، وأن مواقفه سليمة ناضجة، وبخاصة موقفه من عبادة غير الله، ورفضه الظلم، يقول:(٢)

فَمَـــن يَكُ سائِلاً عَنّي فَإِنّـــــي ... مِنَ الفِتيانِ فِي عامِ الخُنـانِ
مَضَت مِئةٌ لِعـــــامٍ وُلِدتُ فِيهِ ... وَعَشـــرٌ بَعـدَ ذاكَ وَحِجَّتـانِ
فَقَد أَيقَنت صُروفُ الدَهرِ مِنّي ... كَما أَبقَت مِنَ السيفِ اليَماني
تَفَلَّلَ وَهـــــوَ مَأثُورٌ جُـــــرازٌ ... إِذا جُمِعَت بِقائِمِـــــهِ اليَـدانِ
أَلا زَعَمَت بَنـــُو كَعبٍ بِأَنّـــي ... اَلا كَذَبُـــوا كَبِيرُ السِنِّ فانـــي

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص١٠.

(٢) انظر: النابغة الجعدي، "ديوانه"، ص١٧٨.

وتدخلت الخبرة الطويلة في رسم لوحة حياة الشاعر المليئة بالبطولة والفخر بإنجازات الذات، وبعمره الطويل المليء بالتجارب والأحداث، التي تشرف وترفع من قدر فخره بنفسه بعد أن بلغ من العمر عتيا، وأخذ منه الكبر شبابه إلا أنه لم يستطع سلبه ثقته بنفسه، ولا إنجازاته الماضية، فهو يفاخر للتغلب على ما أورثه عمره جسده من وهن وضعف، ولإثبات الذات وقوتها الروحية وقدرتها على تجديد الماضي البهي، وما تجريد الخصم من خصال القوة وإلباسه ثوب الهوان والمهانة والضعف إلا وسيلة من وسائل الذات لتثبيت نفسها، والفخر هو الفن المناسب لحمل هذه الذات الرافضة للاستسلام، فقال:(١)

لَبِستُ أُناساً فَأَفنَيتُهُ ... وَأَفنَيتُ بَعدَ أُناسٍ أُناسا
ثَلاثَةَ أَهلِينَ أَفنَيتُهُم ... وَكانَ الإِلـهُ هُوَ المُستآسا
وَعِشتُ بِعَيشَينِ إِنَّ المَنونَ ... لتَقّى المَعايِشَ فِيها خِسَاس
فَحِيناً أُصادِفُ غِرّاتِه ... وَحِيناً أُصادِفُ مِنها شِمَاسا
نَشَأتُ غُلاَماً أُقَاسِي الحُروبَ ... وَيَلقى المُقاسُونَ مِنِّي مِرَاسا
وَحُمرٍ مِنَ الطَعنِ غُلبِ الرِقاد ... كَالأُسدِ يَفتَرِسُونَ افتِرَاسا
شَهِدتُهُمُ لا أُرَجِّي الحَياة ... حَتّى تَساقَوا بِسُمرٍ كِيَاسا

ثانياً: التهاجي

أذكت الحياة الجاهلية روح العصبية القبلية، وتكفل الشعراء بمهمة المفاخرة بأحسابهم وعشائرهم وقبائلهم وبطولاتها وأيامها وصفاتها وأفعالها، وهجاء من يتطاول عليها والنابغة الجعدي من الشعراء الذين قاموا بمهمتهم هذه خير قيام في الجاهلية وفي الإسلام، فهو مع إدراكه الإسلام ووعيه لتعاليمه وأوامره ونواهيه إلا أنه

(١) انظر: النابغة الجعدي، "ديوانه"، ص٩٨.

لم يستطع التخلص من رواسب الجاهلية، فقد ارتبط بقومه ارتباطا وثيقا إلى حد التعصب، فهو خرج ومعه عصبة له حين سمع تصارخ بعض أقاربه من بني عامر حين نهوا عن رعي زرع في البصرة، وحين سأله أبو موسى عن سبب خروجه قال: سمعت داعية قومي، فضربه أبو موسى الأشعري أسواطا، فهجا النابغة أبو موسى الأشعري بقوله:[١]

رأيت أبا بكر بكر بني ثمود وأنت أراك بكر الأشعرينا
فإن يكن ابن عفان أمينا فلم يبعث بك البر الأمينا
فيا قبر النبي وصاحبيه ألا يا غوثنا لو تسمعونا

وممن هاجاهم من الشعراء، بر بن أوس مغراء، وأوس بن مغراء، وليلى الأخيلية، وكعب بن جعبل، وابن الحيا،[٢] ويرى شوقي ضيف أن النابغة الجعدي لم يتخلَ عن عصبيته في الإسلام، وهذه العصبية هي التي دفعته إلى الاصطدام بأوس ابن مغراء،[٣] ويقول ابن سلام إن الأخطل هجاه بأخرة،[٤] وتغنى النابغة الجعدي في هجائه بنفسه وبمفاخر قومه وانتصاراتهم في حروبهم، وهجا خصومهم وخاصة بنى أسد الذين قتلوا أخا له في بعض حروبهم مع قبيلته، ففي شعر النَّابغة الجعدي هجاءٌ ومفاخرة، وهما أغلبُ الشعر عنده، وحين نزل مع قومه بأصبهان،[٥] تهاجى مع سوّار بن أوفى القشيري، وتصدت له ليلى الأخيلية[٦].

---

(١) انظر: الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٢٣.
(٢) هو سوار بن أوفى بن سبرة، من قشير.
(٣) شوقي ضيف، "تاريخ الأدب العربي"، دار المعارف، مصر، ١٩٦٥، ج٢، ص١٠٢.
(٤) ابن سلام، "طبقات الشعراء"، ص٥٤.
(٥) انظر: ابن حجر، "الإصابة"، ج٦، ص٣١٤.
(٦) انظر: الأصفهاني، "الأغاني"، ج٥، ص١٣.

لقد ارتبط الهجاء بالفخر عند الشعراء، فلا غرابة أن يفخر النابغة بنفسه أو بقومه وبفضائلهم، وبسائر بطون بني عامر، وفي قصائد الهجاء؛ إغاظة للخصم وترفعا عليه، وتحقيره وتنقيصه. فهو هجا في قصيدته الفاضحة سوار بن أوفى القشيري، (١) وفاخره بقومه فقال يهجوه ويفاخره:(٢)

يا ابن الحيا إنني لولا الإلــه ... وما قال الرسول لقد أنسيتك الخالا
ولقد وسمتك وسما لا يغيّبه ... ثوباك يبــرق في الأعناق أحــوالا
أنى تهمّم فينا الناقصات وقد ... كنا نقــدم للظــــلام أنكــــــالا
فإن صخرتنا أعيت أبـاك ولا ... يألو لها ما استطاع الدهر إخبـالا

وقد ويفاخر بإسلامه، فيفخر أن إسلامه وإيمانه منعاه من الإقذاع في هجائه، فيكتفي بذكر ما فعله قومه بالقبائل المهجوة من تقتيل وما سطروه من بطولة وشجاعة: (٣)

وعلقمة والجعفي أدرك ركضنا ... على الخيل إذ صام النهار وهجّرا
ونحن ضربنا بالصفا آل درام ... وذبيان وابن الجون ضربا مذكّـرا
أرحنا معدا من شراحيل بعدما ... أراهم مع الصبح الكواكب مظهرا

يتبين مما ذكر أن الفخر تداخل بالهجاء تداخلا ثابتًا في شعر النابغة الجعدي، كما هو عند بقية الشعراء العرب القدامى.

---

(١) انظر: الأصفهاني، "الأغاني" ص١١-١٣.
(٢) انظر: الأصفهاني، "الأغاني" ص١٠٠.
(٣) انظر: الأصفهاني، "الأغاني" ، ص٨٤.

الفصل الثاني

المبحث الأول: النسق الديني

رفد القرآن الكريم والحديث النبوي المعجم العربي بمصطلحات دينية عديدة بالإضافة إلى المعاني والأفكار الجديدة التي دعا إليها الإسلام، فقد وسع القرآن مفردات اللغة، وأكسبها مقدرة على احتواء الموضوعات والأفكار الجديدة التي جاء بها، فجعلها لغة حضارة وعلم وتشريع(١).

تأثر النابغة الجعدي بالدين الجديد فوظف شخصيات ورموزا وأحداثا دينية في فخره، ويتضح هذا التأثر في نصوصه وأساليبه ولغته، أو في استلهامه المعاني القرآنية، فضلا عن اقتباسه منه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، أو الإشارة إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، فيما يتعلق بحياته وأقواله على مستوى المفردة، وأحيانا يتجاوز ذلك لإعادة جو القصص القرآني ضمن السياق الثقافي الذي يخدم البناء الشكلي والدلالة التي يرمي إليها الشاعر في كل توظيف(٢) وبما أن الدين هو أحد عناصر تكوين النسق الديني فضلا عن أن الشاعر يجد فيه متنفسًا للخروج من الأزمة والمأزق، التي تحيط به؛ لأن حضور الدين في التجربة الشعرية يعطي إحساسا بالحضور والاستمرار والثبات، فضلا عن أنها حماية تحمي الإنسان من الانحراف النفسي والجسدي والاجتماعي، واذا لم توجد هذه الحماية يكون الإنسان عبداَ لغرائزه وشهواته، وعندما يقل النسق الديني تسيطر الرغبة والغريزة وتظهرا وكأنهما سيدتا الموقف فتجرفا الإنسان في تياراتهما المختلفة، يقول النابغة:(٣)

---

(١) انظر: شلتاغ عبود شراد، "أثر القرآن الكريم في الشعر الحديث"، مؤسسة الثقافة الجامعية، ٧.

(٢) علي حداد، "أثر التراث في الشعر العراقي الحديث"، العراق، دار الشئون الثقافية العامة، العراق، ٢٠٠٣م، ص٨٣ .

(٣) النابغة الجعدي، "ديوانه"، ص- ص ١٤٧- ١٤٨.

الحَمـــدُ لِلَهِ لاَ شَـــــرِيكَ لَـــهُ مَن لَـم يَقُلها فَنَفسَهُ ظَلَمـا
المُولِـــجِ الليـــــلَ في النهـارِ وَفِي الليلِ نَهاراً يُفَرِّجُ الظُّلَما
الخافِضِ الرافِعِ السَماءَ عَلى ال أَرضِ وَلَم يَبنِ تَحتَهـا دِعَمـا
الخالِقِ البـارِئِ المُصَـوِّرِ في ال أَرحامِ ماءً حَتّى يَصِـيرَ دَما
مِن نُطفَـــــةٍ قَدَّهـــا مُقدّرُهـــا يَخلُقُ مِنها الأَبشارَ وَالنَسَمـا

ويعد النسق القرآني من أبرز الأنساق الثقافية ذات الأثر الجمالي والفكري لتحقيق الطاقة الإبداعية الممتدة في جسد النص الشعري في النسق الديني، "لأنه يمثل المنبع الأول للثقافة الإسلامية وكل ما عداه تابع له وفرع، وقائم عليه"،[1] فضلا عن دوره الأساسي في بناء المجتمع سواء أكان هذا الدور على مستوى البعد الروحي، أم البعد المعنوي الذي تكمن من خلاله علاقة الفرد مع المجتمع الذي ينتمي إليه، فالشاعر في النص أعلاه عمد إلى المخزون الثقافي القرآني والمتمظهر في ألفاظه ودلالته في النص، وطبيعة خطابه الشعري، وصوغه بهذا الأسلوب ليعبر عن نسق ديني يكمن في وحدانية الله، وفخره بالإسلام، فقد أقتبس (الحمد لله) إشارة واضحة لسورة الحمد (المولج الليل في النهار)، (الخافض الرافع)، (الخالق البارئ المصور)، (من نطفة قدها) وهو ما أتاح للنص المنتج من النسق القرآني توسعة فضاءاته، وتعميق فاعليته في ذهن المتلقي وقصد منه بيان أن الله خالق الكون وبيده كل شيء، وإن بناء النص الشعري وفق قانون أنساق ثقافية دينية هو اجترار لنص سابق أو تحوير في البنى الموضوعية مع تغير طفيف في البناء الفني، ويعود هذا الأمر إلى الخضوع الكلي للنص السابق وتجلياته في النص اللاحق فيبقى النص أسيرا لنظرة التقديس والاحترام للنص السابق سواء أكان النص قرآنيا، أم غيره فتكون

(١) محمد راغب الطباخ، "الثقافة الإسلامية" تحقيق: أبو سهل محمد سعد شيخ (بريطانيا، مكتبة إسماعيل، د.ت)، ١٤.

هذه النصوص مسيطرة على مخيلة الشاعر،[١] وهذا الكلام يشير إلى أشكال فنية ودلالية تتعلق بمدى التجديد والإبداع من داخل الأنساق الدينية، لأن الأنساق الدينية في النص الشعري يصعب عرضها بصورة مطابقة، لذا وجب النظر إلى إبداع الشاعر في توظيف هذه الأنساق توظيفا دالًا موحيًا ذكيا.

ويتابع النابغة الجعدي توظيفه للنسق الديني الظاهر فيقول:[٢]

يا مالِكَ الأَرضِ وَالسَماءِ وَمَـن ... يَفرَق مِنَ اللَهِ لا يَخَف أَثَما
إِنِّي اِمرُؤٌ قَد ظَلَمتُ نَفسِي وَإِلاَّ ... تَعفُ عَنّي أُغلا دَماً كَثِمـــا
أُطــرَحُ بِالكَافِرِينَ في الدَرَكِ ال ... أَسفَلِ يَا رِبِّ أصطَلي الصَرِما
يَرفَعُ بالقارِ والحَـــدِيدِ مِنَ ال ... جَوزِ طِوالاً جُذُوعُها عُمُمـــا
نُودِيَ قُـــم وَاركَبَن بأَهلِكَ إنَّ ... اللَهِ مُوفٍ لِلناسِ ما زَعَمـــا

يحاول الشاعر أن يجعل من النسق الديني الظاهر مرتكزا للإبداع الشعري، وينطلق منه إلى عالم الخيال، فقد جاء النسق الديني في فخره مكثفا ومثيرا لحدس المتلقي من خلال نسق ظاهر (يا مالِكَ الأَرضِ وَالسَماءِ) وإن جاء التمحور على هيئة دعاء (أُطرَحُ بِالكَافِرِينَ في الدَرَكِ الأَسفَلِ) معتمدا على ما أمده مخزونه الثقافي من صور إيحائية، فالشاعر في المعنى المفارق يعمل على مناقضة نسقه ليظهر على هيئة بوح شعري (إِنِّي اِمرُؤٌ قَد ظَلَمتُ نَفسِي) يتباين مع ما جاء من أنساق دينية (وَإِلاَّ تَعفُ عَنّي أُغلا دَماً كَثِما) لإبراز دعوة الشاعر بدافع الاعتراف بالذنب، ويمكن التمعن بتجليات الأنساق في النص من خلال استخدام أفعال الأمر (اغلا _ اسقل

(١) محمد بنيس ، "ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب: مقاربة بنيوية تكوينية"، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ١٩٨٥م، ٢٥٣.
(٢) النابغة الجعدي، "ديوانه"، ١٥٠.

_قم _اركبن) ولا يؤدي توظيف الأمر هنا معنى النهي والتنبيه بقدر ما يشير إلى (التوبة) النسق المضمر في النص.

وفي مقطع آخر نجد تأثير النسق الديني واضحا في فخر النابغة الجعدي:(١)

وَإِنْ تَسَلا إِنَّ الْحَيَـــاةَ قَصِيـــرَةٌ ... وَطِيرَا لِرَوْعَاتِ الْحَـــوَادِثِ أَوْ قِرَا

وَإِنْ جَـــاءَ أَمْرٌ لا تُطِيقَانِ دَفْعَهُ ... فَلا تَجْزَعَا مِمَّا قَضَى اللَّهُ وَاصْبِرَا

أَلَـــمْ تَعْلَمَا أَنَّ الْمَلامَةَ نَفْعُهَـــا ... قَلِيلٌ إِذَا مَا الشَّيْءُ وَلَّى فَأَدْبَـــرَا

تَهِيجُ اللِّحَـــاءَ وَالنَّدَامَـــةَ ثُمَّ مَا ... تُقَرِّبُ شَيْئًا غَيْـــرَ مَا كَانَ قُدِّرَا

لَوَى اللَّهُ عِلْمَ الْغَيْبِ عَمَّنْ سِوَاءَهُ ... وَيَعْلَمُ مِنْهُ مَـا مَضَى وَتَأَخَّـــرَا

رَكِبْتُ أُمُـــورًا صَعْبُهَا وَذَلُولُهَـا ... وَقَاسَيْتُ أَيَّامًا تُشِيبُ الْحَـــزَوَّرَ

تَبِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى ... وَيَتْلُـــو كِتَابًا كَالْمَجَرَّةِ نَيِّـــرَا

ارتكز الفخر في هذه الأبيات على نسق ديني يحمل دلالات التكثيف، وهو ما يرفع شأن القصيدة من مصاف التعبير الصوري إلى درجة كشف الرؤيا والاستغراق فيها، مما يعطي انطباعا عن الحالة النفسية التي مر بها الشاعر؛ إذ هو حاول الاتكاء على نسق الديني باتجاه مغاير لواقع الحياة وإنتاج دلالات جديدة تتوافق مع حالته النفسية، وهذا التوظيف القرآني يعطي زخما لأفق التوقع المعارض لما هو موجود في الواقع، فالشاعر يعارض (وَإِنْ جَاءَ أَمْرٌ لا تُطِيقَانِ دَفْعَهُ) لأجل الخلاص، ويأتي النسق الديني (قَضَى اللَّهُ وَاصْبِرَا) ليعطي دلالة ثانية مغايرة في صدر البيت، أما النسق الآخر المغاير(رَكِبْتُ أُمُورًا صَعْبُهَا، وَقَاسَيْتُ أَيَّامًا) فيعطي صورة عن حياة الناس المغرقة بالشرك قبل الإسلام ليأتي النسق الديني(تَبِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ) الذي أنقذ البشرية من الظلم إلى النور (وَيَتْلُو كِتَابًا كَالْمَجَرَّةِ نَيِّرًا) والغاية من تشكيل هذه

(١) النابغة الجعدي، "ديوانه"، ٥٥ – ٥٦.

الأنساق لدى الشاعر تقديم صورة لحالة الناس والعتمة التي يعيشها المجتمع العربي قبل بعثة الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، فالنص عبارة عن لوحة من الاقتباسات الدينية الصبر، الله، الرسول، الكتاب والهدى، علم الغيب، قضى الله، والنص كله امتصاص وتشرب وتحويل لنصوص أخرى،(١) استلهم الشاعر فيه النسق الديني في توظيف نسق الشخصيات؛ لأنها تعد الأقرب إلى المبدع؛ لأنها تحمل معه الرسالة والتجربة الإبداعية، ومعها تعرف الظروف الاجتماعية والحياة السائدة؛ فالشاعر يختار الشخصية التي تتوافق مع تجربته الشعرية من جهة، وتعبر عن موقفه وفكره من جهة أخرى، فهو يوظف شخصية النعمان بن المنذر والحياة في زمنه ليقرب لنا النسق الديني في ظل الإسلام، يقول:(٢)

في غُرَّةِ الدَهرِ إذ نُعمانُ ذُو تَبَع وَإذ تَرى الناسَ في الأَهواءِ هُمّالا
حَتّى أَتَى أَحمَدُ الفُرقانُ يَقرَأُهُ فِينا وَكُنّا بِغَيبِ الأَمرِ جُهّالا
فَالحمدُ لِلّهِ إذ لَم يأتِني أَجَلي حَتّى لَبِستُ مِنَ الإِسلامِ سِربالا
يا بِنَ الحَيا إِنَّني لَولا الإِلهُ وَما قالَ الرَسُولُ لَقَد أَنسيَتُكَ الخالا

يتضح في النص أعلاه نسقان في فخر النابغة الجعدي: مضمر هو ما جدّ في حياة الناس بفعل الدعوة الإسلامية، وظاهر جاهلي (شخصية النعمان بن المنذر)، وكيف كان الناس في زمنه في ضلال وشرك(تَرى الناسَ في الأَهواءِ هُمّالا) حتى جاء (أَحمَدُ بالفُرقانُ يَقرَأُهُ) فقد أسهم هذا الاستحضار المتنوع للنسق الديني المضمر بين الحياة في زمن النعمان والحياة في زمن الرسول، صلى الله عليه وسلم، في تعزيز الارتباط بين الواقع الديني الذي يعيشه الشاعر في ظل الإسلام (حَتّى لَبِستُ

(١) ينظر: عبد القادر بقشى، "التناص في الخطاب النقدي والبلاغي، دراسة نظرية تطبيقية"، إفريقيا الشرق، ص ١٠٢.

(٢) النابغة الجعدي، ديوانه، ١٢٢ – ١٢٣.

مِنَ الإسلامِ سِربالا)، وبين الواقع الشعوري والذاتي المكتنز في ذاكرة الشاعر من الجهل (وَكُنّا بِغَيبِ الأَمرِ جُهّالا) معبرا عن مكونات نفسية قادرة على أن تقدم فكرة الجهل تقديما حافلا بالإيحاءات ومحركة للعواطف والأحاسيس، وهذا ما لمسناه في النص أعلاه الذي جاء فيه الفخر بالإسلام من خلال المخزون الثقافي للشاعر، وتقابله مع النسق القرآني (الحمدُ لِلّهِ) وشخصية الرسول، صلى عليه وسلم، في خلق نسق ديني يعبر عن تجربة الذات التي كانت مكتظة باللهو والجهل بجملة من التفاصيل عاشها الشاعر قبل الإسلام، وتظهر صورتا النسق الديني والشخصيات الجاهلية في منابع فخر الجعدي، وربما تتفاقم تجلياتها عبر أنساق ثقافية عدة من أجل جذب أذن المتلقين غير الراغبين بالإنصات لها، ووفق ذلك يفرض الشعراء أنساقا تفرض على المتلقي سماعها والإنصات لها، والثقافة هي "نظام دلالي محدود بحدود نظامه؛ إذ تصبح الثقافة مقصورة على هذا النظام الذي تفرزه حالما يحدها ويؤطرها، فيمنحها تبعا لذلك خصوصيتها أي يغلقها على ذاتها وهذه خاصية النظام عموما"[1] ومن هنا فإن الأنساق الثقافية تستطيع أن تجمع المتناقضات؛ كونها لا تتقيد بمنهج معين، أو آلية تحليل محددة، ومن هنا نجد تكرار العبارات أو المواقف في بناء النص الشعري ويمكن النظر إليه في سياق ترسيخ الوعي الفني للأنساق الثقافية وفق أداء تعبيري جديد يسهم في الأفق الجمالي للنص، فقد عمد النابغة إلى تكرار شخصية المنذر في نص آخر، فقال:[2]

قالَت أُمامَةُ كَم عُمِرتَ زَمانَـةً ... وَذَبَحتَ مِن عِترٍ عَلى الأَوثانِ

وَلَقَد شَهِدتُ عُكاظَ قَبلَ مَحَلِّها ... فِيها وَكُنتُ أُعَدُّ مِنَ الفِتيـانِ

(١) ميجان الرويلي، سعد البازي، "دليل الناقد الأدبي"، ط٣، المغرب – الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٤٠ – ١٤١.

(٢) النابغة الجعدي، "ديوانه"، ١٧٦ – ١٧٧.

وَالمُنذرَ بنَ مُحـــرّقٍ في مُلكِــهِ وشهدتُ يَومَ هَجائِنِ النُعمانِ
وَعُمِرتُ حَتّى جاءَ أَحمدُ بالهُدى وَقَوارعٍ تُتلى مِن الفِرقـــانِ
وَلَبِستُ مِن الإسلامِ ثَوباً واسِعاً مِن سَيبِ لا حَرِمٍ وَلا مَنّــانِ

من الصعب ضبط حدود الالتزام في بناء الأنساق الثقافية وفق قانون التكرار من غير خرق هذه السلطة في تحقيق قانون الإبداع، والميل نحو إنتاج نصوص جديدة يمكنها أن تولد أشكالا شعرية جديدة في مسار التطور الشعري، فضلا عن تداخل الشعر مع أجناس أدبية أخرى، الأمر الذي يدفع إلى جعل النص الشعري غير ملتزم بقانون التكرار في كثير من الإيحاءات، ويكون محكوما بالأنساق الثقافية انطلاقا من التداخل النصي بين الشعر وغيره من الفنون، فيحدث تغير وتجديد في النص. وفي النص أعلاه سمة تكرار التناص مع النص السابق، وهو ما يعرف التكرار الداخلي الذي يتناص الشاعر مع نص سابق له، فقد هيمنت شخصية المنذر بن النعمان من خلال سؤال أمامة عن عمره، وربط الشاعر بين حياته في ظل حكم المنذر القائمة على الشرك، وبين حياته في ظل الإسلام. واعتمد الشاعر في فخره على التضاد بين طرفين مختلفين: الطرف الأول تمثله حياته قبل الإسلام والطرف الثاني حياته الإسلامية، وهذا الأسلوب يدل على براعة الشاعر في إحكام لغة القصيدة بصورة تؤدي إلى إقناع المتلقي باعتبار أن اللغة كما يسميها (مارتن هايدجر) هي (بيت الكينونة) فهي ليست وسيلة لتوصيل الأفكار بالأفكار؛ بل أداة منتجة، أي بمعنى أن الانسحاب من لغة هو معادل للانسحاب من الذات، والالتحاق بلغة مطلقة تخاطب ذات الشاعر الذي خرجت من كينونتها السابقة، واستلّت من نسقها اللغوي إلى نظام ترميزي[١].

---

(١) مصطفى العطار ، "الكتابة خارج النسق نحو تأسيس لتصوف كوني"، ط١، دار كنوز المعرفة العلمية،٩٣.

المبحث الثاني: النسق القبلي

في أي تجربة شعرية لا مفر من ملاحقة الأنساق الفكرية والقبلية وغير ذلك من البواعث التي تسهم في إنضاج النص الأدبي بوصفه نشاطا إبداعيا يعتمد التخيل المرتبط بمؤثرات نفسية، ولهذا التخيل أداة هي اللغة، لذا قيل إن الأدب نشاط تخيلي أداته اللغة، ولأن كل هذه الروافد ترتبط في نهر يمكن أن نسميه الإبداع، والمجتمعات القبلية تختلف في عاداتها وتقاليدها من قبيلة إلى أخرى "ولكل مجتمع ظواهره الاجتماعية التي تميزه عن المجتمعات الأخرى أو التي نشاهدها فيه ولا نشاهدها في غيره"(١).

والنسق القبلي مخزون من الخبرات، فني ومعرفي وفكري يستلهمه النابغة الجعدي للتعبير عن مضامين حياته القبلية برؤية جديدة "فالشاعر عندما يتوجه إلى معطيات موروثه الأدبي فأنه لا يعمد إلى الإفادة الجامدة التي تدخل من باب التكرار والتقليد، وإنما يهدف إلى إعادة صياغة المعطيات بما يثري عمله الجديد، ويجعله صالحا للتعبير عن قضاياه"،(٢) أما النقلة النوعية التي قنّنت الأنساق الثقافية فهي أن النص كالإنسان لا يتشكل بنفسه ولنفسه فحسب؛ وإنما تشكله المؤسسات الثقافية كالمجتمع والأسرة والقبيلة،(٣) وربما لا نجافي الصواب إن قلنا إن شعر الفخر القبلي هو الأكثر نجاحا لحمل الهوية البشرية وتمرير أنساقها، لأن النسق الذي تمارسه القبيلة وما يصاحبها من أنساق تهميش، وما ينبثق من شعور الفرد أو الجماعة

---

(١) عبد الحميد لطفي، "علم الاجتماع"، بيروت: دار النهضة العربية، د.ت ،٢٢.

(٢) محسن أطيمش ، "ديرُ الملاك – دراسةٌ نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر"، بغداد: دار الرشيد، ١٩٨٢م، ٢٢٢.

(٣) فنسنت ليتش،" النقد الامريكي من الثلاثينيات إلى الثمانينيات"، المجلس الأعلى للثقافة،٢٠٠٠م، ٤٠٣.

بأفضلية قبيلتهم يعطي صورة واضحة لطبيعة العلاقات وأسس التعامل فيها، وبرز لنا ونحن ندرس النسق القبلي في فخر النابغة الجعدي نسق الهوية القبيلة ونسق السخرية، فقال:(١)

وَنَحنُ ضَرَبنـــا بِالصَفَا آلَ دارِمٍ وَحَسّانَ وَابنَ الجَون ضَرباً مُنكَّرا
وَعَلقمَـةَ الجعفيَّ أَدرَكَ رَكضُنـــا بِذِي النَخلِ إِذ صامَ النَهارُ وَهَجَّرا
ضَرَبنا بُطونَ الخيلِ حَتّى تَناوَلَت عميدَي بَني شيبانَ عَمروَا وَمُنذرا
أَرَحنـــا مَعدّاً مِن شَراحيلَ بَعدَمـا أَرَاها مَعَ الصُبحِ الكَواكِبَ مُظهِـرا
تَمَرَّنَ فيـــهِ المَضرَحِيَّةُ بَعدَمـــا رَوَينَ نَجيعاً مِن دَمِ الجَوفِ أَحمَرا
وَمِن أَسَدٍ أَغوى كُهُـــولاً كَثيرَةً بِنَهي غُرابٍ يَومَ مـــا عَوَّجَ الذُرا

ويعمد النابغة إلى النسق القبلي، ثم يحول هذا النسق المضمر إلى وشيجة فنية ونفسية بين الواقع النسق القبلي وغرض القصيدة، حتى يحس المتلقي بعبق هذا النسق القبلي والخصوصية، وهو التشبع بالنسق القبلي وبيان انعكاسه على تجربة الشاعر بما يحمله من دلالات لرؤية الشاعر فضلا عن أنها تمثل لبنات أساسية في بناء النص الشعري؛ إذ استحضر الشاعر النسق القبلي المتمثل في وصف المعارك الحربية (ضَرَبنا بِالصَفَا آلَ دارِمٍ، أَرَحنا مَعدّاً مِن شَراحيلَ، وبني أسد وبني غراب) لتصبح جزءا جديدا من البنية النصية للنص المنتج، وتقديمه بصيغ جديدة ولغة جديدة للدلالة على رؤية الشاعر المتشبعة بالروح القبيلة، فالشاعر هنا وإن كان يفخر في ظاهر خطابه الشعري، فإنه يشير بمنزلة قومه ومكانتهم، فضلاً عن أن النص يحمل إشارة إلى الأنساق والدلالات الثقافية المضمرة (ضَرَبنا بُطونَ الخيلِ)، (رَوَينَ مِن دَمِ الجَوفِ أَحمَرا) للدلالة على عمق المعركة وشدتها، فالشاعر يدعو إلى

(١) النابغة الجعدي، "ديوانه"، ٧٤ – ٧٥.

الإيمان الحقيقي المطلق وتخليص الناس من قادة الظلم والطغيان والفخر بالإسلام، يقول:(١)

بَلَغنَا السّماء مَجداً وَجوداً وَسُؤدَداً ... وَإنّا لَنرجُو فَوقَ ذَلِكَ مَظهَـــرا
وَكُلَّ مَعدٍّ قَـــد أَحَلَّت سُيوفُنـــا ... جَوانِبَ بَحرٍ ذِي غَوَارِبَ أَخضَرا
لَعَمــري لَقَــد أَنذَرتُ أَزداً أُناتَها ... لِتَنظُـــرَ في أَحلامِها وَتُفكِّـــرا
وَأَعرضَتُ عَنّهـــا حِقبةً وَتَرَكتُها ... لأَبلُـــغَ عُذراً عِندَ رَبِّي فَأُعـذَرا
وَما قُلتُ حَتّى نالَ شَتمُ عَشيرَتي ... نُفَيلَ بِنَ عَمرٍو وَالوَحيدَ وَجَعفَرا

نجد في النص دلالات كثيرة وعميقة في فخر الجعدي إذا تضمن إشارات إلى أنساق ثقافية مضمرة في الفخر بالإسلام على الشرك؛ لأن الدين يمثل الركيزة المكونة للوعي الاجتماعي منذ خلق الإنسان وحتى يومنا هذا، وبه تزداد المجتمعات تماسكا وصلابة وعلوا، وهو ما نلمس صداه في قوله(بَلَغنَا السّماء مَجداً) الذي يذهب به الشاعر في نسقه المضمر إلى أن العرب في ظل الإسلام قد بلغوا مكانة وشرفا عظيما تتفوق على الهوية العربية التي تقوم على التناحر والفرقة والصراعات القبيلة، التي حاربها الإسلام قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}"(٢) ، فالنسق المضمر أن القيم الجاهلية زائلة بزوال مسببها، وليس كحال القيم الإسلامية الباقية إلى يوم الدين، ويذهب الجعدي في فخره إلى نقطة يتجاوز فيه حدود الجنس البشري ليغوص في فخره بعنصر الجمادات التي تحضى بصفة الفخر وتقترب من صفات

(١) النابغة الجعدي، "ديوانه"، ٨٥.
(٢) سورة الحجرات، آية: ١٣.

الفخر البشرية حين فخر بالسيوف (وَكُلَّ مَعدٍّ قَد أَحَلَّت سُيوفُنا) نسق مضمر عن العرب وقوتها، وقال أيضا في النسق القبلي:(١)

وألقي عَلَى جيرانها مسحة الهوى وإن لم يكونوا لي قبيلًا ومعشرا
ترديت ثوب الذل يـــــوم لقيتها وَكَانَ ردائي نخوة وتجبـــــــرا
حسبنا زمانًا كل بيضاء شحمـــــة ليالي إذ نغزو جذاما وحميـــرا
إِلَى أن لقينا الحي بكـــر بْن وائل ثمانين ألفًا دارعين وحســـــرا
فلما قرعنا النبـــع بالنبـــع بعضه ببعض أبت عيدانـه أن تكســـرا
سقيناهـــم كأسا سقونا بمثلهـا ولكننا كنا عَلَى الموت أصبـــرا
بنفسي وأهلي عصبـــــة سلمية يعدون للهيجا عناجيج ضمـــرا
وقالـــوا لنا أحيوا لنا من قتلتـــم لقد جئتم إدًا من الأمـر منكـــرا
ولسنا نرد الـــروح فِي جسم ميت وكنا نسيل الـروح ممن تنشـــرا
نميت ولا نحيي كذلك صنعنـــــا إذا البطل الحامي إِلَى الموت أهجرا
ملكنا فلم نكشف قناعا لحـــــرة ولم نستلب إلا القنـاع المسمـــرا

في النص أعلاه غلبت اللغة الثورية على فخر الشاعر فقد استعمل الفعل المضارع للدلالة على الحركة والعمل والبطولة في مواجهة الخصوم (سقيناكم، تكسرا، تنشرا، تجبرا، ترديت، نميت، ونحيي) التي تكشف عن نسقية الأخذ بالثأر على من يحملون أفكارا يتصورها المجتمع بأنها ستقوض كيانه وبناءه، وستنسف قيمه المعهودة وقوله:(وقالوا لنا أحيوا لنا من قتلتم) كشف عن نسق سلوكي واحتقان قبلي يركز على القتل والأخذ بالثأر، ولا وجود للحوار، أو الفهم، ويحاول الشاعر الرد بالحجة والبرهان المضاد لمنظومة القبيلة التي تركز على نسقية إلغاء الآخر بأي

(١) النابغة الجعدي، "ديوانه"، ٨٧– ٩٠.

وسيلة من الوسائل، فيأتي رد الشاعر كوسيلة استباقية (ولسنا نرد الروح في جسد الميت) كونه يدرك أن نسقية القبيلة تكمن في الشرك فيرد بـ(نميت ولا نحيي) فيستخدم التضاد بين ثنائية الموت والحياة، وبين ذات الشاعر التي تحقق وجودها وتركز على الوجود والعدم، وللدلالة على أننا نقتل من يعادينا، ولكن النص في باطنه يخفي أو يضمن نسقا مضمرا يشير إلى شيوع مبدأ الإقصاء، وأن الموت والحياة بيد الله، وليس بيد البشر.

أن حركة الموت والحياة قد أخذتا مكانة كبيرة في فخره فقد ربطهما ببيئته العربية وخاصة بالمرأة، فيذكر لنا طبيعتها في الخوف على زوجها فقال:(١)

بَاتَتْ تُذَكِّرُنِي بِاللهِ قَاعِدَةً ... وَالدَّمْعُ يَنْهَلُّ مِنْ شَأْنَيْهِمَا سَبَلَا

يَا بْنَةَ عَمِّي كِتَابُ اللهِ أَخْرَجَنِي ... عَنْكُمْ وَهَلْ أَمْنَعَنَّ اللهَ مَا فَعَلَا

فَإِنْ رَجَعْتُ فَرَبُّ النَّاسِ يُرْجِعُنِي ... وَإِنْ لَحِقْتُ بِرَبِّي فَابْتَغِي بَدَلَ

مَا كُنْتُ أَعْرَجَ أَوْ أَعْمَى فَيَعْذِرَنِي ... وْضَارِعًا مِنْ ضَنًى لَمْ يَسْتَطِعْ حِوَلَا

تعامل الشاعر مع المرأة في النص من خلال نسق أنثوي سلطوي قائم على التضاد في المعاني بين الظاهر والمضمر والنسبي والمطلق، وحاول الشاعر من خلاله إخفاء معالم الذات المتضخمة من خلال الجمع بين الشيء وضده (أخرجني _امنعن) (رجعت _لحقت) والجمع بين ظاهر اللفظ ونقيضه، ويؤسس لمنطق الفناء بين ثنائية الذات المؤسسة للخطاب وبين نسق المرأة الموجه لها الخطاب مما يحقق جمالية التركيب من خلال تشاكل التنغيم، ويمكن معاينة صيغة (باتت تذكرني) التي هي تعبير يوحي بوجود نسق مضمر يعبر عن قيمة الذات في الدفاع عن الدين، ويوحي النص إلى أن الخطاب بين الاثنين يعكس طبيعة التقارب، وعمق العلاقة، وهو

(١) النابغة الجعدي، "ديوانه"، ١٣٧- ١٣٨.

إيحاء تعبيري لنرجسية المرأة فهو وضعها في مواضع التخاطب والتداول مع الرجل المحارب، فهو نسق مضمر يعبر عن وجود صيغة حوارية بين الذاتين، بين ذات الشاعر المحبة للجهاد، وذات المرأة الخائفة على زوجها من الموت، وتحاول منعه من الخروج بكل السبل؛ لأن من عواقب الحروب أن تحزن النساء وتحارب الآلام وحدها فضلا عن تحملها مسؤولية الأسرة في حالة موت الزوج، وللقبيلة على مرّ العصور دور مهم في حياة الفرد؛ لكونها تمثل الإطار الذي تحددت عن طريقه ملامح شخصية الفرد من خلال الالتزام بالأعراف والتقاليد القبلية التي تعد مرجعياتهم الثقافية التي يستلهم منها الشاعر مادته ويبنى عليها نصوصه الشعرية كما في قوله: (١)

نَحنُ بَنُو جَعدَةَ أَربابُ الفَلَج
نَحنُ مَنَعنا سَيلَهُ حَتّى اِعتَلَج
نَضرِبُ بِالبِيضِ وَنَرجُو بِالفَرَج

هذا التوظيف البلاغي العميق يختزل نسق الهوية القبلية (الفلج، اعتلج، فرج) مستغرق في التفكير العابر، حتى تتحول تلك الهوية من الواقع المألوفة إلى سطوة التعالي والفخر(نضرب بالبيض) في حين تضع من عاداها في مساحة غائبة أي إن النسق القبلي هو الذي يهمش الآخر (نحن منعنا) إشارة إلى القمع والإقصاء بوصفهما النسق الثقافي المضر والدال على سلطوية هوية بني جعدة على باقي القبائل العربية، ونلحظ أن الشاعر وظف المكان ليعطي وظيفة نسقية تحيل إلى التحول القبلي (الفلج) من أجل تكثيف نسق الهوية القبلية.

(١) النابغة الجعدي، "ديوانه"، ٤٨.

المبحث الثالث: النسق الذاتي

لا شك أنه من المفيد أن يكون التعامل مع الخطابات الإبداعية الأدبية أو غير ذلك من أنواع الخطابات الثقافية- من أنها وثائق تعكس واقع العصر الذي أنتجت فيه، فضلا عن أنها تمثل امتدادا لثقافة العصور السابقة؛ لأن أحوال الثقافة وإن كانت متغيرة غير ثابتة إلا أنها تبقى محافظة على انتمائها التاريخي الذي يوصل في نهاية المطاف إلى أصول مرجعياتها المنتجة لها خارج حدود النص، ويعد نسق الهوية، وما يمارس فيه من تثقيف وترسيخ لهوية الأنا إزاء إقصاء قاسٍ لهوية الآخر وتهميشها من أكثر الأنساق تغلغلا في فخر النابغة الجعدي، والهوية في مفهومها الثقافي "الخصوصيات التي تميز فردا عن غيره، أو جماعة عن غيرها، وتمثل انعكاسا لواقع ما ولتصورات معينة"،(١) وإن للصراع البشري بشتى أنواعه "الثقافي، الديني، الاقتصادي، المعرفي" دورًا في إنتاج الهوية، ومن ثم فرض هيمنتها على المجتمع، وإن وظيفة الفرد الحامل لهذه الهوية تتمثل في تشييد مجدها والذود عنها كما في قوله:(٢)

فَمَن يَكُ سائِلاً عَنّي فَإِنّـــــي ... مِنَ الفِتيانِ فِي عامِ الخُنـــانِ
مَضَت مِئةٌ لِعامٍ وُلِدتُ فِيـــهِ ... وَعَشـــرٌ بَعـــدَ ذاكَ وَحِجَّتانِ
فَقَد أَيقَنَت صُروفُ الدَهرِ مِنّي ... كَما أَبقَت مِنَ السيفِ اليَماني
تَفَلَّلَ وَهـــوَ مَأثُورٌ جُـــــرازٌ ... إِذا جُمِعَت بِقائِمِـــهِ اليَـــدانِ
أَلا زَعَمَت بَنـــــُو كَعبٍ بِأَنّـــي ... اَلا كَذَبُـــوا كَبِيـــرُ السِنِّ فانـــي

(١) سمير الخليل، "دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي؛ إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة"، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت ،٣١٥.

(٢) النابغة الجعدي، "ديوانه"،١٧٨- ١٨٠.

جَلَبنا الخَيلَ مِن تَثلِيثَ حَتّـــى أَتَيـنَ عَلـى أَوارَةَ فَالعَـــــدانِ
أَتَينَ عَلى المُنَقَّى مُمسَّكـــاتٍ خِفافَ الوَطءِ مِن جَذبِ الزَمانِ
يُعارِضُهُنَّ أَخضَـــرُ ذُو ظِلالٍ عَلى حَافاتِـــهِ فِلَقُ الدِنـــــانِ
وَظَلَّ لِنِســـوَةِ النُعمـــانِ منّا عَلى سَفَـــــوانَ يَومٌ أَرَوناني
فَأَردَفنـــــــا حَلِيلَتَهُ وَجِئنـا بما قَد كـــانَ جَمَّعَ مِن هِجانِ
فَظَلتُ كَأَنَّنِي نادَمتُ كِســـرى لَهُ قاقُـــــزَّةٌ ولِيَ اثنَتَـــــانِ

في المقطع الآنف الذكر صورة ثقافية فكرية التقطها الشاعر من خبرة عمره الطويل (مضت مئة عام) واكتملت صورة النسق الهوية من خلال تضخيم الأنا في فخر الشاعر؛ فنظرة الاستعلاء بقيمة الذات كانت واضحة من خلال ذكر أحداث تاريخية مثل (يوم الخنان) الذي كان أيام المنذر بن ماء السماء، وهذا الإيحاء والتلميح في استرداد الأحداث التاريخية والأدبية وظفها الشاعر في نسق ذاتي لبناء الوعي الفكري عند أبناء جلدته، ثم المبالغة في تضخيم الأنا في الفخر بنفسه حين وصف ذاته مثل السيف اليماني في المضاء على الرغم من تقادم عهده في القتال، وإن توظيف نسق الذات مثل (كأني نادمت كسرى)، (زعمت بني كعب بأني)، (فمن يك سائلا عني) هو محاولة من الشاعر للوصول إلى أقصى ما يروم الوصول إليه، وهو الفخر بعمره الطويل، وأنه عاصر أحداثا تاريخية كثيرة، وذلك للإيحاء بحالة مثالية سيطرت على مخيلة الشاعر للبحث عن كل ما من شأنه أن يرفع من قدر فخره بذاته، وإن هذا النسق الذاتي يمثل رد فعل على الواقع الذي يعيشه في تلك المرحلة، مما انعكس في عالم المتخيل من أجل صنع واقع خيالي يسود الحياة، أو بتعبير آخر انهزام الشاعر من واقعه فينزع نحو النسق الذاتي متجها إلى عالم الخيال في نسج أفكاره كما في قوله(وظل نسوة النعمان منا)، (فأردفنا حليلة وجئنا) يحاول الشاعر من خلالها أن يجعل من الفخر بذاته حلما سرمديا باعتداده بنفسه بعد أن بلغ المائة وعشرين عاما، وأخذ منه الكبر ما أخذ، ومن خلال الفخر بشبابه الذي

مضى، وهو يقصى الآخر أحيانا في محاولة لإثبات الذات، وتثبيت الذات من أجل بزوغ قدرة الفرد لاسيما عند العربي، الذي يتخذ من شخصيته صورة أبهى للذات، ويتخذ من الآخر صورة أدنى منه في فخره، بل إن أكثر الشعراء العرب القدامى يوجهون فخرا مبالغا فيه، لكنهم في المقابل يقدمون صورا أقل للآخر من أجل أقصائه ومحاولة لإذابة هويته العريقة التي ترسخت واستعظمت في ثقافة العربي جيلا بعد جيل عبر خلخلة هذه المثالية المهيبة في نفس الإنسان العربي فقال:(١)

كَمـــا فَعَلنـــا بِحَسّـــانَ الرَئِيسِ وَبِـــا ... بنِ الجونِ إِذ لا يُريدُ الناسُ إِقبالا
إِذ أَصعَدَت عامِـــــرٌ لا شَيءَ يَحسِبُهُـم ... حَتّى يَروا دُونَهُـــم هَضباً وأَنوالا
حَتّى عَطَفناهُمُ عَطفَ الضَرَّوسِ وَهُـــم ... يَلقَونَ مِمّا تخـــافُ النَفسُ بَلبالا
أَو قُل هُمُ قاتَلُـــوا شَهبـــاءَ مُضلِعَـــةً ... قَد قَذَفَت في قُلُوبِ النـــاسِ أَهوالا
مِن بَعدِ ما استَنطَقَت حَيَّ الحَرِيشِ وَحَـي ... ياً مِن عُبادَةَ لَـــم تُنعِمهُـــمُ بالا
وَمِثلَهُـــــم مِـــن بَنِي عَبسٍ تَدُقُّهُـــمُ ... ودَقَّ الرَحَـــى الحَبَّ إِدباراً وَإِقبَالا

فقد عمد في القصيدة إلى تقويض مجد ملكهم (حسان بن عامر بن جون) الذي استنجد بالنعمان بن المنذر يوم رحرحان من بني عامر وعبس إلا أن بني عامر هزمتهم، وأسرت الطفيل بن مالك حسان بن جون،(٢) وإن هذا الخطاب المعلن الذي وقفنا عليه في النص أعلاه يعمد إلى تقويض هوية الآخر بطريقة عدائية لا تخفي نبرة العنف الخطابي الهادف إلى ترسيخ الهوية الدينية والعمل إلى إنعاشها عبر الخطابات الإبداعية التي تمنح النص سر الخلود، ومن خلال النسق الثقافي الملتوي

(١) النابغة الجعدي، "ديوانه ١٢٤.

(٢) محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، "أيام العرب في الجاهلية"، بيروت: المكتبة العصرية، ٣٩٤.

المغلف بحيل بلاغية يضمن فكرة المفاضلة بين الهوية القبلية والهوية الإسلامية في إطار المعترك السياسي الذي شهده المجتمع العربي في ظل الإسلام، والجناس الذي صنعه الشاعر (عطفناهم _عطف)(حي – وحي) استخدمه الشاعر ليحقق هذا النسق الثقافي في تحقير هوية الآخر وتعريتها من الفضائل كالشجاعة والقوة والكرم والمروة وغيرها، واعتماد آليتين لبعض الدراسات الثقافية، إحداهما الاحتضان، والأخرى الاستئصال والطرد وهذا ما وجدناه في فخر النباغة الجعدي القبلي، الاستخفاف والطرد عبر إثبات معاير الفضل للطرف الأول، ثم سحقه وتجريده، وإن محاكاة الشاعر لخطابه الموجه للآخر يتطلب فرضيات مجربة فهو يحاول إعلاء ذاته في فخره وإثباتها نسقا صريحا مهما في إقصاء الآخر، فقال: (١)

لَبِستُ أُناساً فَأَفنَيتُهُ وَأَفنَيتُ بَعدَ أُناسٍ أُناسا
ثَلاَثَةَ أَهلِينَ أَفنَيتُهُم وَكانَ الإِلهُ هُوَ المُستآسا
وَعِشتُ بِعَيشَينِ إِنَّ المَنونَ لتَقّى المَعايِشَ فِيها خِسَاس
فَحِيناً أُصادِفُ غِرّاتِه وَحِيناً أُصادِفُ مِنها شِمَاسا
نَشَأتُ غُلاَماً أُقاسِي الحُروبَ وَيَلقى المُقاسُونَ مِنِّي مِرَاسا
وَحُمرٍ مِنَ الطَعنِ غُلبِ الرِقاد كَالأُسدِ يَفتَرِسُونَ افتِرَاسا
شَهِدتُهُمُ لا أُرَجِّي الحَياة حَتّى تَساقَوا بِسُمرٍ كِيَاسا
وَخَيلٍ يُطابِقُنَ بِالدّارِعِينَ طِباقَ الكِلابِ يَطَأنَ الهَرَاسا

من يطلع على الأبيات أعلاه يتجلى له النسق ففيها تضخم الأنا من منظر الاستعلاء والتباهي في قيمة نفس الشاعر التي كانت واضحة (نشأت غلاما أقاسي الحروب)؛ إذ اعتمد الشاعر أسلوب المراوغة في تأدية المضمون الثقافي عبر

(١) النابغة الجعدي، "ديوانه ٩٨– ٩٩.

اعتماد التعبير غير المباشر المتكئ على المجازات (حمر من الطعن غلب الرقاد)(كالأسد يفترسون)(طباق الكلاب) لعلمه بما للمجاز الذي يغطي مساحة كبيرة من لغة الشعر من قيمة ثقافية في بروز الأنا الذكورية والفحولة، فمعظم ما يصنع من جمال شعري يكون بفعل تقنياته المجازية، وهو يتميز بذلك عن اللغة المباشرة للتعبير الأنسب لتمرير الأنساق الثقافية، وهذا ما يلمسه المتلقي في نص أعلاه فقد تضافرت التشكيلات المجازية التعبيرية والانزياحات المتنوعة بما تحمله من دلالات نسقية في بلورة البعد الثقافي في وصف شجاعة الشاعر في الحروب فهو مثل الأسد يفترس المخلوقات افتراسا.

فشعور النابغة الجعدي بالاغتراب، وفقدان المعايير والانتماء وغيرها من الأفكار تحوّل إلى نسق ثقافي مشتعل داخل الذات، فهو يعيش ظل أحداث وصراعات أجبر على التعايش معها كما في قوله:(١)

حَتّى إذا غَفَلَت وَخَالَفَها ... مُتَسَرِبِلٌ أَدَماً عَلى الصَدرِ

صَدَعٌ أُسَيِّدُ مِن شَنُوءَةَ مَش ... اءٌ قَتَلنَ أَباه فِي الدَهرِ

يَمشِي بِمِحجَمِهِ وَقِربَتِهِ ... مُتَلَطِّفاً كَتَلَطُّفِ الوَبرِ

فَأَصابَ غِرَّتَها وَلَو شَعَرَت ... حَدِبَت عَلَيهِ بضيّقٍ وَعرِ

حَتّى تَحَدَّرَ مِن مَنَازِلِها ... أُصُلاً بِسَبعِ ضَوَائنٍ وَفرِ

ما كانَ أَغنى عَن أَبِي كَرِبٍ ... ما كانَ جَمَّعَ أَو أَبِي الجَبرِ

مِن هَجمَةِ دُهمٍ مُزَنَّمَةٍ ... حُمرِ الخُدُودِ وقَينَةٍ بِكرِ

وَأَبَحَّ جُندِيٍّ وَثَاقِبَةٍ ... سُبِكَتِ كَثَاقِبَةٍ مِنَ الجَمرِ

---

(١) النابغة الجعدي، "ديوانه ٩٤- ٩٥.

وَجَدِيدِ حُـــرِّ الوَجهِ حُودِثَ بِال مِثقَالِ خَبءِ خَوالِـدِ الدَهـــرِ
إنِّي أَرى إبـــلاً أضَـــــرَّ بِها دارُ الحِفـــاظِ وَمَحبِسُ التَجرِ
أَسَدِيَّةٌ تَـــرعَى الصِـــرَادَ إذا ضاقَت وَتَحضُـــرُ جانَبي شَعَرِ

الخصائص العامة في شعر النابغة الجعدي

تنوعت الخصائص الفنية في شعر النابغة الجعدي، وجاءت انعكاس للفترة الزمنية التي عاشها في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام، ومن هذه الخصائص:

-الحث على مكارم الأخلاق وهذه من أهم الخصائص التي يفخر بها الشاعر، وكان ممن هجر الأوثان وترفع عن شرب الخمر، قبل ظهور الإسلام.

-تنوع شعر الفخر عنده وجاءت بالحكمة المرتبطة بمرور التجربة الطويلة مع الحياة وتقلباتها التي عاش بها خلال مرحلة حياته الطويلة.

-جاءت قصائد شعره بالحث على كسب الحلال وعدم إذلال النفس والركون إلى الفقر.

-ومن خصائص شعره، جاءت قصائده بالتأمل في الكون والبعد عن الهوى وما يفسد النفس من متاع الدنيا.

-وصف مآثر قومه بشعر الفخر والمدح، والدفاع عن قبيلته ضد الأعداء، وقام بهذه المهمة خير قيام في الجاهلية والإسلام.

-جاءت ألفاظ التوحيد متميزة في قصائده وعدم الشرك بالله قبل ظهور الإسلام، وهذه من تقوى الله وميله لطاعة الله، ومما جعله ينظم قصيدة عندما أسلم ويمدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- عمد الشاعر إلى النسق الثقافي بالقرآن الكريم، وبهذا الأسلوب عبر عن نسق ديني يكمن في وحدانية الله وفخره بالإسلام، كما إنه استمد بعض الأنساق الأخرى وألفاظها ودلالاتها من النسق الذاتي والقبلي.

الخاتمة

١- شكلت الأنساق الثقافية مفهوما مهما في فخر النابعة الجعدي، فتمثلت في إنتاجه الإبداعي؛ إذ هي تحمل في أعماق أشعاره علاقة الشاعر بالدين ومثل هذا الرافد نسقًا مهمًا في فخره، وفي بناء نصوصه الشعرية وتماسكها، فكانت الأنساق الدينية، بما تحمله من أقوال وشخصيات وأحداث وظفها الشاعر في فخره بصورة تتلاءم مع توجهه في معالجة واقعه، واستعان الشاعر بالقرآن الكريم لما له من عمق تأثير في نفوس المسلمين ووظفها في مضامين جديدة لبث الطمأنينة والسكينة في نفوس الناس.

٢-تمازج نسقان في إنجار فخر النابغة الجعدي هما: نسق الذات، ونسق الهوية، الأمر الذي يؤكد استمرار الأعراف الجاهلية في شعره على الرغم من محاربتها من قبل الإسلام، إلا أن الشاعر حاول توظيفهما بأنساق ثقافية جديدة من خلال لغته الشعرية وأسلوبه اللغوي، وهذا يخالف هويتها الجاهلية.

٣- من الأنساق المهيمنة على فخر النابغة الجعدي النسق المضمر، وهو أكثر الأنساق بروزا في شعره، ثم النسق الظاهر ثم نسق الهوية؛ إذ يقدم الشاعر من خلالها فخره، لكنه يحاول ربط هذه الأنساق بالمحتوى الديني، ليفرض عليها رؤيته المقدسة على نصوصه الشعرية.

٤-لعل أهم الظواهر في فخر النابغة الجعدي وجود تجليات شعرية تعبر عن جمالية النص وفق أداء فيه كثير من فنون التعبير البلاغية وشعرية الخطاب تسهم في خلق أعمق بالثقافة لدى المتلقي تجعله لا يرى الأنساق الثقافية الكامنة في فخر النابغة، لأن الشاعر مزج بين عمق الفكرة وجماليات الأداء.

المراجع والمصادر

القرآن الكريم.

١-إبراهيم، محمد أبو الفضل، علي محمد البجاوي، "أيام العرب في الجاهلية"، ١٢٤بيروت: المكتبة العصرية، د.ت.

٢-الأصفهاني، علي بن الحسين(ت٣٥٦هـ)، الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٤.

٣-أطيمش، محسن، "ديرُ الملاك – دراسةٌ نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر"، بغداد: دار الرشيد، ١٩٨٢.

٤-بسبح، أحمد حسن، النابغة الجعدي عصره، حياته وشعره، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤، المقدمة، وانظر مقدمة ديوان النابغة الجعدي، تحقيق واضح الصمد، دار صادر بيروت، ١٩٩٨.

٥-البغدادي، خزانة الأدب، ت محمد نبيل الطريفي، وإميل اليعقوبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.

٦-بقشى، عبد القادر، مفهوم التناص في الخطاب النقدي والبلاغي، دراسة نظرية تطبيقية، إفريقيا الشرق، د.ت.

٧-بنيس، محمد، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب: مقاربة بنيوية تكوينية، (الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ١٩٨٥م.

٨-ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني(ت٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، كلكتا، ١٨٥٣.

٩-الخليل، سمير، النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب، دار الجواهري، بغداد، ٢٠١٢.

١٠-الخليل، سمير، "دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي؛ إضاءة

توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة"، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.

١١-حداد، علي، أثر التراث في الشعر العراقي الحديث، (العراق، دار الشئون الثقافية العامة، العراق، ٢٠٠٣م.

١٢-أبو ديب، كمال، الرؤية المقنعة، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، دار الكتب، ١٩٨٦م.

١٣-الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت،١٩٨٥.

١٤-ابن سلام، محمد الجمحي (ت٢٣١هـ) طبقات الشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١.

١٥-السلمي، علي، تحليل النظم السلوكية، مكتبة غريب، القاهرة، د.ط، د.ت.

١٦-شراد، شلتاغ عبود، أثر القرآن الكريم في الشعر الحديث، مؤسسة الثقافة الجامعية.

١٧-ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٥.

١٨-الطباخ، محمد راغب، "الثقافة الإسلامية"، تحقيق: أبو سهل محمد سعد شيخ (بريطانيا، مكتبة إسماعيل، د. ت.

١٩-العطار، مصطفى، "الكتابة خارج النسق نحو تأسيس لتصوف كوني"، ط١، دار كنوز المعرفة العلمية.

٢٠-عليمات، يوسف، جماليات التحليل الثقافي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤.

٢١-الغذامي، عبد الله، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية، المركز الثقافي العربي، المغرب، ٢٠٠٥.

٢٢-ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.

٢٣-ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ.

٢٤-ليتش، فنسنت،" النقد الامريكي من الثلاثينيات إلى الثمانينيات"، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠.

٢٥-لطفي، عبد الحميد، "علم الاجتماع"، بيروت: دار النهضة العربية، د.ت.

٢٦-ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

٢٧-المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران ، "معجم الشعراء" ،مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٢م.

٢٨-ميجان الرويلي، سعد البازي، "دليل الناقد الأدبي"، ط٣، المغرب – الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

٢٩-ميلود حبيبي، الاتصال التربوي وتدريس الأدب، المرجع الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء ط١، ١٩٩٣م.

٣٠-النابغة الجعدي، ديوان النابغة الجعدي، تحقيق واضح الصمد، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨.